OPEN ACCESS
Received: 21 -06 -2024
Accepted: 15- 09-2024

الآداب
للدراسات اللغوية والأدبية

Techniques of Temporal Paradox in Andalusian Prison Poetry: An Artistic Analysis of Selected Models

Dr. Abdullah Bin Mohammed Bin Ali Al-Ghafees * abgfees@qu.edu.sa

Ghada Bint Maleeh Bin Muqbil Al-Fraidi** ghadamalf@gmail.com

Abstract

This research explores the use of temporal paradox in Andalusian prison poetry, focusing on the techniques of flashback and anticipation from an artistic perspective. It is divided into two sections, preceded by an introduction that outlines the role of prison literature within Arabic poetry, particularly in Andalusia, and its relationship with temporal paradox. The introduction also defines key concepts related to these techniques. The first section analyzes the use of flashback in selected Andalusian poems, while the second examines the anticipation technique. The study highlights that harsh conditions, including imprisonment and captivity, significantly shaped the poetic creativity of these poets. Key findings reveal that the two temporal techniques serve distinct purposes: flashback offers insight into the poet's past realities and experiences, while anticipation expresses future aspirations and expectations. Anticipation can reflect hopeful desires, such as seeking forgiveness or freedom, or darker emotions, like resignation to death. By exploring these techniques, the research uncovers how poets navigate the tension between memory and expectation, enhancing the emotional and artistic depth of their work.

Keywords: Narrative Techniques, Temporal Paradox, Flashback, Anticipation, Andalusian Poets, Prison Poetry.

* Associate Professor of Literature and Criticism, Department of Arabic Language and Literature, College of Languages and Humanities, Qassim University, Buraidah, Saudi Arabia.

** MA Student in Literary Studies, Department of Arabic Language and Literature, College of Languages and Humanities, Qassim University, Buraidah, Saudi Arabia.

Cite this article as: Al-Ghafees, Abdullah Bin Mohammed Bin Ali. Al-Fraidi, Ghada Bint Maleeh Bin Muqbil (2024). Techniques of Temporal Paradox in Andalusian Prison Poetry: An Artistic Analysis of Selected Models, *Arts for Linguistic & Literary Studies*, *6*(4): 292 -312.

© This material is published under the license of Attribution 4.0 International (CC BY 4.0), which allows the user to copy and redistribute the material in any medium or format. It also allows adapting, transforming or adding to the material for any purpose, even commercially, as long as such modifications are highlighted and the material is credited to its author.

(EISSN): 2708-5783 ISSN: 2707-5508
DOI:https://doi.org/10.53286/arts.v6i4.2185

الآداب
للدراسات اللغوية والأدبية

OPEN ACCESS
تاريخ الاستلام: 2024/06/21م
تاريخ القبول: 2024/09/15م

تقنيات المفارقة الزمنيّة في شعر السجن الأندلسيّ: تحليل فنّيّ لنماذج مُختارة

د. عبدالله بن محمد بن علي الغفيص *
abgfees@qu.edu.sa

غادة بنت مليح بن مقبل الفريدي**
ghadamalf@gmail.com

الملخّص

يتناول البحث تقنية المفارقة الزمنية في نماذج من الشعر الأندلسي الدائرة حول موضوع السجن، استرجاعًا واستشرافًا، عبر منهج فني، ويأتي البحث في مبحثين، مسبوقين بتمهيد يعرض بإيجاز مضمون أدب السجون ومكانته في الشعر العربيّ وفي الشعر الأندلسيّ بشكل خاص، ويُبيّن ارتباط هذا الأدب بتقنيات المفارقة الزمنيّة مع تحديد مفاهيمها، وتناول المبحث الأوّل تقنية الاسترجاع المتجلّية في بعض النماذج الأندلسيّة، وأمّا المبحث الثاني فيختصّ بدراسة تقنية الاستشراف، وقد توصل البحث إلى نتائج من أهمّها: أنّ ظروف الحياة القاسية وتجربة السجن أو الأسر لها دور كبير في تشكيل الإبداع الشعريّ لدى أولئك الشعراء، كما توصّل البحث إلى أنّ الوقوف على تقنيتيّ الترتيب الزمنيّ وتتبّع مضامينهما حقّق رصد الفوارق بينهما؛ فالاسترجاع يُجلّي للقارئ الواقع الحقيقيّ الذي كان عليه الشاعر آنذاك، والاستشراف يُشير إلى التطلّعات والرغبات التي ينتظر الشاعر تحقيقها بتأمّل كالعفو واستعادة الحريّة، وبيأس واستسلام كانتظار الموت.

الكلمات المفتاحيّة: التقنيات السرديّة، المفارقة الزمنيّة، الاسترجاع، الاستشراف، شعراء الأندلس، شعر السجون.

---

* أستاذ الأدب والنقد المشارك بقسم اللغة العربيّة وآدابها-كلّيّة اللغات والعلوم الإنسانيّة- جامعة القصيم- بريدة - المملكة العربية السعوديّة.

** طالبة ماجستير في الدراسات الأدبيّة - قسم اللغة العربيّة وآدابها-كلّيّة اللغات والعلوم الإنسانيّة- جامعة القصيم- بريدة - المملكة العربيّة السعوديّة.

للاقتباس: الغفيص، عبدالله بن محمد بن علي. الفريدي، غادة بنت مليح بن مقبل. (2024). تقنيات المفارقة الزمنيّة في شعر السجن الأندلسيّ: تحليل فنّيّ لنماذج مُختارة، *الآداب للدراسات اللغوية والأدبية*، *6*(3): 292-312.

© نُشر هذا البحث وفقًا لشروط الرخصة Attribution 4.0 International (CC BY 4.0)، التي تسمح بنسخ البحث وتوزيعه ونقله بأي شكل من الأشكال، كما تسمح بتكييف البحث أو تحويله أو الإضافة إليه لأي غرض كان، بما في ذلك الأغراض التجارية، شريطة نسبة العمل إلى صاحبه مع بيان أي تعديلات أُجريت عليه.

المقدّمة:

لقد تقلّب شعراء الأندلس في بيئة قُدّر لها أن تعيش ظروفًا قاسية، ونكبات متوالية اضطرمت في نفوس أهلها واستشرت؛ حتّى أفرزت أدبًا خاصًّا، تفنّنوا في صوره، ودلالاته، وموضوعاته، وقدّموا فيه خلاصة أيّامهم البائسة، داخل الأسوار، وعُصارة تجارب ما سامه الدهر من محن مأساويّة، دفعتهم –تارة- إلى الميل نحو السخط، والتمرّد، ورفض الواقع، بصرخات مدويّة تشفّ عن نفسيّة متألّمة منكسرة، وتارة أخرى، إلى إيثار التجلّد، والثبات، والأنفة، كنوع من تهدئة النفس، واستقرارها؛ لاقتناعهم أوّلًا بحقيقة الحياة، والموت، وثانيًا ليأسهم من استعادة الحريّة، والعزّ، والمجد من جديد.

وهذا بدوره يُشير إلى ارتباط السجن بالشعر في علاقة متينة متواشجة؛ حيث جاءت قصائد هذا النوع الأدبيّ وعاء شافًّا عمّا يعتلج في أعماق الشاعر النفسيّة والتي من شأنها أن تُعلن عن موقفه إزاء ذلك؛ تمرّدًا أو استسلامًا. وهنا يأتي دور الزمن وفاعليّته في كشف هذه الدلالات وإبراز موقف الشاعر، والوقوف على لحظات هروبه من واقعه إلى ماضٍ يتوق إليه ويتحسّر عليه، أو إلى مستقبل مجهول يشوبه الغموض والقلق، يُحاول من خلاله التطلع إلى مآله ومصيره وفق تداعياته النفسيّة؛ وهذه المشكلة التي يرتكز البحث عليها وينطلق منها.

وقد وقع الاختيار على تقنيات المفارقة الزمنيّة عند شعراء الأندلس؛ لبروز هذه التقنية في شعر السجون -لا سيّما من كان له دور سياسيّ بارز-؛ ممّا أدّى إلى اكتناز الأدب الأندلسيّ بتجارب ذاتيّة مأساويّة ثرّة اقتضت تسليط الضّوء عليها، وإزاحة السّتار عن مقاصدها، والتّنقيب في إيحاءاتها، والكشف عن نفائسها، عبر الاستعانة بتقنيتي المفارقة الزمنيّة: الاسترجاع والاستشراف، التي انسابت في تعبير هؤلاء الشعراء للإعراب عن رؤاهم وأحاسيسهم وانفعالاتهم في خضمّ هذه الظروف المُفجعة.

وتكمن أهمّيّة الدراسة في الكشف عن رؤية شعر السجون الأندلسي للزمن، استرجاعًا أو استشرافًا؛ ومن ثمّ السعي إلى كشف دور هذه التقنيات السرديّة ونظامها الزمنيّ في شعر أدباء الأندلس؛ لإزاحة الستار عن الدلالات الخفيّة المتوارية عن سطح النصّ والقابعة في لاشعور الشاعر.

ولذا تهدف هذه الدراسة إلى الإجابة عن تساؤلات يُثيرها موضوع البحث من قبيل:

ما دور المفارقة الزمنيّة في بناء تجربة الشعراء المسجونين؟

هل للاسترجاع والاستشراف أثر في بناء النصّ وتشكيله؟

كيف أثّرت دراسة الاسترجاع والاستشراف في انفتاح النصّ الشعريّ على الأبعاد الدلاليّة المختلفة؟

وقد اتّبعت الدراسة المنهج الفني في دراسة النصوص الشعريّة المختارة؛ للوقوف على المفارقة الزمنيّة فيها وتتبّعها من خلال تقنيتي الاسترجاع والاستشراف، ثمّ رصد ما اكتنزته من مضامين ثرّة تُبرز أبعادهما

الدلاليّة؛ وهذا تطلّب الاستفادة من المنهج الاجتماعيّ بتضافره مع المنهج النفسيّ في دراسة ظروف الشاعر ونفسيّته، ومحاولة تتبّع أثر السجن وارتباطه بطرق التعبير عنه من خلال الألفاظ الظاهرة على سطح النصّ، المباشرة وغير المباشرة؛ إذ تختلف الدلالات وتتفاوت حدّتها باختلاف التجربة الشعوريّة.

أمّا عن الدراسات السابقة فهي على صنفين:

الصنف الأوّل: دراسات لتقنيات المفارقة السرديّة في أدب السجون عند شعراء الأندلس؛ وهذا ما لم يصل إليه الباحثان -في حدود اطّلاعهما- وعليه وقع اختيار الموضوع.

الصنف الثاني: دراسات تناولت مادّة أدب السجون في العصر الأندلسيّ باختلاف الموضوع والمنهج والمدوّنة المختارة؛ فمن أبرزها:

- النزعة الاغترابيّة في أدب السجون (إطلالات ونماذج) للباحثة أمينة بوحايك.
- أثر السجن والأسر في شعر رثاء الذات في العصر الأندلسيّ -نماذج مختارة- للباحثتين عواطف نصر، وقدويّة يعقوبي.
- معاني شعر السجون في الأدب الأندلسيّ إلى نهاية عصر الطوائف للباحث يونس مجيد.
- شعر السجن عند المعتمد بن عبّاد -دراسة فنّيّة- للباحثة بسمة مخلوف.
- شعر السجن عند ابن زيدون الأندلسيّ: دراسة وصفيّة تحليليّة للباحث محمّد أسعد.

هذه الدراسات جميعها لم تجعل التقنيات الزمنيّة المتمثّلة في الاسترجاع والاستشراف محورًا لدراستها، ولم تُشر إلى أي مؤشّر زمنيّ فيها؛ فهي بعيدة الصلة عن هذه الدراسة التي نحن بصددها.

وسيأتي البحث في مبحثين، مسبوقين بتمهيد يعرض بإيجاز مضمون أدب السجون ومكانته في الشعر العربيّ وفي الشعر الأندلسيّ بشكل خاص، ويُبيّن ارتباط هذا الأدب بتقنيات المفارقة الزمنيّة مع تحديد مفاهيمها.

المبحث الأوّل: ستقتصر الدراسة فيه على تقنية الاسترجاع المتجلّية في بعض النماذج الأندلسيّة؛ لاستعراض طرق تعبير كلّ شاعر عنها ومراوحتها بين استثارة العواطف الإنسانيّة بمخاطبة المدن والتوق إلى الماضي البهيج؛ كما هو عند ابن زيدون وابن عمّار، والشكوى من تحوّل الحال من عزّ وغنى إلى هوان وفقر؛ كما هو عند المعتمد بن عبّاد، والتحسّر على الملك المفقود والحاضر المؤلم؛ كما هو عند عزّ الدولة الصمادحيّ.

والمبحث الثاني: سيختصّ بدراسة تقنية الاستشراف وفق رؤية كلّ شاعر وموقفه النفسيّ؛ فقد تطغى عليه الحكمة والتأمّل كما في أبيات مروان الطليق، أو الاستشفاع وطلب العفو كما في شعر ابن عمّار،

أو بكاء القدر المحتوم والإحساس بدنوّ الأجل، وكذلك اليأس من الحياة واليقين من الموت كما في شعر المعتمد بن عبّاد.

وبعد تحليل نصوص هذين المبحثين؛ ستختتم الدراسة بذكر أهمّ النّتائج الّتي توصّلتْ إليها، ثمّ قائمة المصادر والمراجع التي استعانت بها.

التمهيد:

يُعدّ أدب السجون نوعًا من أنواع الأدب، يكتبه صاحبه إذا كان مسلوبَ الحرّيّة، أو معطّلَ الحركة، أو مقيّدًا في مكان ضدّ إرادته، وهذا ما يُسمّى بالإقامة الجبريّة (البزّة، 1985، ص 23). وهو نوع أدبيّ نضاليّ «يتناول حياة السجن والسجناء التي يشوبها البؤس والقهر المتولّدان من مرارة المعاناة وقسوة الحياة» (عبد الدائم، 2020، ص 20)؛ والأدب بهذا المفهوم له أثر اغترابيّ يدفع صاحبه إلى الشعور بالألم والعجز والوحدة؛ لِما كابده من ضيق وانقلاب وتشمّت، وتُستشفّ هذه الدلالة من قول ابن قتيبة: «كُتب على باب السجن: هذه منازل البلوى وقبور الأحياء وتجربة الصديق وشماتة الأعداء» (ابن قتيبة، 1418: 79/1)؛ وهذه المعاناة النفسيّة تزداد وطأتها لكون المرء أسيرًا لعدوّ يملك حقّ التصرّف في حياته كما يشاء، وهذا المعنى يتّصل بالأصل اللغويّ للكلمة؛ فالأسر هو الحبس، «وكلّ محبوس في قيد أو سجن: أسير» (ابن منظور، 1414).

وقد نال شعر السجون في الأدب العربيّ القديم حظوة كبرى مذ العصر الجاهليّ وحتّى العصر العبّاسيّ، وانعكست آثار هذه المكانة على الإبداع الأدبيّ لشعراء مشهورين وآخرين مغمورين؛ حيث جسدّوا في قصائدهم صنوف التعذيب بجميع أشكاله وأساليبه، وصوّروا أوضاع السجن ومكارهه وما يختلج في نفوسهم؛ فتنوّعت تعابيرهم لاختلاف أحاسيسهم نفسيًّا وعاطفيًّا وفكريًّا، لكنّ هذا النتاج المعبّر عن تجربة إنسانيّة قاسية شهدها الأدب العربيّ فُقِد معظمه لعدّة أسباب؛ أبرزها «العامل السياسيّ [...] والخوف من السلطان» (الصمد، 1995، ص 8).

والعصر الأندلسيّ من أهمّ العصور التي أنتجت أدبَ السجون؛ فقد أُمتُحن شعراء هذا العصر بفتن ونكبات كثيرة على امتداد تاريخه، وقد تركت هذه الأحداث المأساويّة من سجن وإذلال آثارها في أصحابها؛ حيث يضعنا أدبهم أمام نصوص شعريّة تنضح حزنًا، وعاطفة تعتصر ألمًا مدارها المركزيّ حول رثاء الذات.

ولهذا الغرض بواعث كثيرة تتّصل بالشّيخوخة والشيب والمرض وغيرها من ظواهر الحياة الإنسانيّة؛ إذ هو حالة انفعاليّة تصف «مجموعة من مشاعر خاصّة تمتاز بالحزن واللوعة والبكاء» (باقر، 2012، ص81)، لكنّ اتّصال هذا الغرض بأدب السجون أوثق وأرسخ؛ وقد قيل في هذا الشأن: «أمّا السجون فقد شهدت قصائد كثيرة في رثاء النفس» (رحيم، 2012، ص96).

ويُعدّ الندب صورة من صور الرثاء؛ ويعني: تذكّر الفاجعة والبكاء عليها بعبارات مُشجية، وألفاظ مُحزنة (ضيف، 1955، ص12)؛ وهذا بدوره يقتضي الانسلاخ من الواقع لاستعادة صفحات الماضي، واسترجاع صور الذكريات المحبّبة بما فيها من رخاء وتحرّر؛ بهدف التحسّر والتوجّد على ما فُقد، أو للتّلذّذ بالذّكر والتنعّم بلحظات من الحبور والانتشاء الموهوم. وقد ينفصل الشاعر عن ماضيه وواقعه ليتطلّع إلى زمن بعيد يرسم مستقبل حياته من خلاله؛ إمّا الذلّ والموت، أو التمكين والعزّ.

وهذا التغيير في مستوى نظام الزمن تصطلح عليه الدراسات السرديّة وتسميه المفارقة الزمنيّة؛ ويُقصد بها: اختلاف نظام ترتيب الأحداث بين الزمنين: زمن السرد، وزمن الحكاية، ومن هنا تنشأ المفارقة السرديّة التي تكون تارة استرجاعًا إلى أحداث ماضية، وتارة أخرى استشرافًا لأحداث لاحقة (القاضيّ، 2010، ص 399)، وهما من تقنيات الترتيب الزمنيّ لأحداث البنية السرديّة، والزمن الأدبيّ -كما يقول الروسيّ فيكتور شكلوفسكيّ-: «ليس إلّا عرفًا ولا تتطابق قوانينه مع قوانين زمن الحياة الحقيقيّة» (العبوديّ، 1426، ص60).

وسنقف على هذه المفاهيم السرديّة نظريًّا وتطبيقيًّا، من خلال تتبّع النصوص الإبداعيّة لشعراء شهدوا تحوّل النعيم والعزّ والرخاء إلى البؤس والذلّ والحرمان؛ فذاقوا المرّ وتجرّعوا الألم، في المباحث الآتية:

المبحث الأوّل: تقنية الاسترجاع

يُعرف الاسترجاع بالارتداد، وهو عمليّة سرديّة تتمثّل في «الرجوع بالذّاكرة إلى الوراء البعيد أو القريب» (يوسف، 2015، ص 103)، بعد التوقّف عن متابعة سير الأحداث الواقعة في الزمن الحاضر، والذاكرة بوصفها مرتكزًا أساسيًّا لتقنية الاسترجاع تُعدّ نوعًا من أنواع الوعيّ وتعمل ضدّ الوقت (العبوديّ، 1426، ص62).

وقد تفاعل شعراء الأندلس مع واقعهم في السجن أو الأسر للإبانة عن لواعج نفوسهم عبر هذه التقنية السرديّة؛ فـ«اللجوء إلى الذاكرة [...] كان حماية بالنّسبة للشّعراء السجناء من الانهيار والتوتّر» (كريم، وعثمان، 2023، ص27)، فيستعرضون في أشعارهم جوانبهم النفسيّة والوجدانيّة والفكريّة التي حرّكتها تقلّبات الحياة بما فيها من فتن ونكبات؛ فأدى ذلك إلى إثراء التراث الأدبيّ العربيّ القديم، وإثراء التجربة الإنسانيّة وصراعها ما بين الانكسار والصمود، والجزع والتجلّد، والاستسلام والانتصار؛ وهذا بدوره يُشير إلى اختلاف تجربة كلّ شاعر عن الآخر، واختلاف دلالاتها الضمنيّة وتعدّدها.

وتتمثّل أبرز الدلالات المتجلّية في أدب السجون عند شعراء الأندلس في الآتي:

أ. التوق إلى الماضي البهيج

يُعدّ ابن زيدون (ت463هـ) الذي نُكب عاطفيًّا إلى جانب نكباته السياسيّة؛ ممّن خاطب حواضر الأندلس، وناجى طبيعتها الغنّاء؛ بل وكان حريصًا «على إشراك عناصر الطبيعة معه في كلّ مشاعره

وأحاسيسه، وأذِن لها أن تمدّ ظلالها وارفة على شعره» (فاضل، 1996، ص 299)؛ استئناسًا بذكرها، وتلذّذًا بوصف مراتعها لارتباطها بمحبوبته ولّادة؛ يقول في هذه المقطوعة الشعريّة التي قالها وهو في السجن يتذكّر قرطبة وأيّامها (ابن زيدون، 1994، ص198-200):

أقرطبـــــة الغـــــرّاء! هـــــل فيـــــك مطمـــــعُ؟

وهـــــل كبـــــدٌ حـــــرّى لبيْنـــــكِ تنقـــــعُ؟

وهـــــل لياليـــــكِ الحميـــــدةِ مرجِـــــعُ؟

إذ الحُســـــن مـــــرأىً فيـــــك، واللهـــــو مســـــمعُ

وإذ كنـــــف الـــــدنيا، لـــــديكِ، موطّـــــأُ

أأنســـــى زمانًـــــا بالعُقـــــاب مُـــــرَفّلا

وعيشًـــــا بأكنـــــاف الرُّصـــــافة دغْفَـــــلا

ومغنـــــىً، إزاء الجعفريّـــــة، أقـــــبلا

لـــــنعمَ مـــــراد الـــــنفس روضًـــــا وجـــــدْولا

ونعـــــمَ محـــــلّ الصـــــبوة المُتبـــــوّا

يبدو أنّ الشاعر هنا يعيش غربة نفسيّة ناتجة عن إحساسه بالوحدة والوحشة؛ لذا حاول أن ينفصل عن واقعه، ويستحضر تلك الأيّام الماضية؛ ليُطلّ منها على عالمه الرحب الذي لطالما ظلّله بالسعادة الوارفة، وغمره بالحبّ والدفء.

فهو هنا يتوق إلى قرطبة الزاهرة، مسترجعًا عيشه الخصب الهانئ وأيّامه في العُقاب والرصافة، ويحن إلى مرابع الأحبّة ومجالس اللهو؛ بهدف التخفيف من وطأة مرارة السجن ولوعته. والشاعر هنا اكتفى باستحضار تلك اللحظات فقط؛ ليخلع حنينه على كلّ ما في الماضي؛ فالنفس «تستقطب [...] من الماضي لتجعل منه رمزًا ومدارًا للماضيّ كلّه» (البزّة، 1985، ص228).

والمُلاحظ أنّ تذكّر الزمن الماضي عند ابن زيدون فيه نفحة من النشوة والسعادة؛ وهذا يُشير إلى ارتباط الزمن بالذات؛ «لأنّ الانفعالات هي التي تنسج الإحساس بوجود الزمن» (كريم، وعثمان، 2023، ص22)؛ ويُمكن أن تُعزى هذه النفحة الشعوريّة إلى شخصيّة ابن زيدون نفسها التي عُرفت بالثبات والثقة

والكبرياء؛ ولذا فإن أشعاره في السجن «فيها من الأنفة والعزّة ما يحوّل الألم إلى نشوة وغبطة» (كريم، وعثمان، 2023، ص16).

وإضافة إلى طبيعة شخصيّته يُمكن أن يكون نظم هذه المقطوعة في السجن قبل أن تتكالب النكبات عليه وتتأزّم علاقته بولّادة، وتضعف أواصر الحبّ والودّ بينهما؛ وهذا يُستشفّ من الحقل المعجميّ في استعمال ألفاظ بعيدة عن مرارة الشكوى، ولوعة الجفاء، وحُرقة الفراق؛ وممّا يؤكّد ذلك أنّ محبوبته ولّادة «لم يكن لها في حبسيّاته كبير ذكر» (البزّة، 1985، ص279).

لكنّ ابن زيدون لم يُلغِ ذكريات محبوبته إلغاء تامًّا، بل إنه في قصيدته التي قالها يمدح أبا الحزم بن جهور ويستعطفه ويستشفعه، استهلّها بمقدّمة غزليّة استذكر فيها بعض المواقف الأثيرة لديه؛ كنوع من تخفيف وطأة التفكير بهذه المحنة، وإشباع الحرمان العاطفيّ إثر ابتعاده عن ولّادة، ووقوعه في هذا الأسر الحقيقيّ والنفسيّ؛ ويتجلّى ذلك في قوله (ابن زيدون، د.ت، ص 60):

لــمْ أنــسَ، إذ باتــت يــدي، ليلــةً وشــاحه اللاصــق دون الوشــاح

يستعيد الشاعر هنا وسط ظلام واقعه ووحدته ذلك الماضي الجميل الذي قضاه مع محبوبته ينهلان من كأس الغرام، وتلك الليلة التي باتت فيها يده وشاحًا لاصقًا بهذه الحبيبة.

ولم يتفرّد ابن زيدون وحده بهذه الدلالة؛ بل إنّ ابن عمّار الأندلسيّ (ت477هـ) هو الآخر عبّر في قصائده عن تباريح الشوق إلى الحرّيّة، وإلى الحياة المتمثّلة في استعادة المُلك والسلطة؛ حيث كان وزيرًا للمعتمد بن عبّاد ونديمه، فأرسله إلى مُرسية واستنابه عليها لكنّ أبا بكر غدر به وعصى وتملّكها؛ فاحتال المعتمد حتّى أوقعه في قبضته وحبسه (ابن الأبّار، 1985: 131/2-135)، ثمّ حين أحسّ بالضياع ولاحظ جفاء المعتمد أرسل إليه من سرقسطة إلى إشبيلية قصيدة يتوسّل فيها إليه ويعتذر عن تقصيره، ويقول في نفس القصيدة متّكئًا على الذكريات واستحضار الماضي (الشريف، 1979، ص172):

فترجــــع أيّــــام مضــــت وكأنّهــــا إذا امتثلتهــــا الــــنفس لــــذّة حــــالمِ

يبدو أنّ ابن عمّار يشعر بالضغط النفسيّ من مستقبله نتيجة شعوره بدنوّ الأجل؛ لذا لجأ إلى الماضي يستعيد أيّامه ويعبّر عن حنينه إليها؛ تخفيفًا من وطأة الحزن المهيمن، وتخفيفًا من وطأة التفكير بالموت. ولا شكّ أنّ استحضار الذكريات في هذا السياق «شيء يحتاجه من يحضره الموت ويزمع توديع الحياة بوصفها أعزّ شيء لديه» (رحيم، 2012، ص230).

ب. الشكوى من تحوّل الحال (العزّوالغنى / الهوان والفقر)

المعتمد بن عبّاد (ت488هـ) هو المقدّم في هذا الباب؛ حيث قضى بقيّة حياته في السجن بعد حياة مترفة تقلّب في نعيمها بين القصور والخمور والعزّ والمجد؛ «فقد انتزع منه ابن تاشفين مُلكه في عمليّة

استيلاء بحتة، لم يكن فيها لرعيّته ومعاصريه من الشعراء مقنع باستحقاقه للعزل والقيد» (البزّة، 1985، ص82).

ولهذا فقد أكثر الشاعر من استحضار الماضي، ومقارنته بحاضره المؤلم، حتّى تكاد تكون هذه الظاهرة هي السمة الغالبة على شعر السجن لديه، وبدورها أفصحت عن نفسيّة ممزّقة، يلفّها الأسى، «وكان ألم المعتمد -على الحقيقة- ألمًا نفسيًّا، روحيًّا، مبعثه التباين بين حياته الماضية، وحياته في المنفى» (جنثالث، 1955، ص 102)؛ ولهذا فقد ارتفع صوت الشكوى في شعره؛ لأنّ هذا الغرض الشعريّ «يصدر عن نفس جزعة، قلقة، تودّ إبراز أمرها» (خليل، د.ت، ص365).

ومن هذا الشعر ما قاله وهو في سجنه بأغمات حين دخلت عليه بناته صبح العيد ورأى تبدّل أحوالهنّ وهنّ حافيات الأقدام، ويرتدين ثياب رثّة (ابن عباد، 1951، ص100-101):

فيما مضى كنتَ بالأعياد مسرورا ... فساءكَ العيد في أغمات مأسورا
ترى بناتك في الأطمار جائعة ... يغزلن للنّاس ما يملكن قطميرا
يطأنَ في الطين، والأقدام جائعة ... كأنّها لم تطأ مسكًا ولا كافورا
قد كان دهرك إن تأمره ممتثلًا ... فردّك الدهر منهيًّا ومأمورا

يضعنا البيت الأوّل منذ بدايته (فيما مضى) أمام زخم سرديّ لما كان عليه الشاعر في الماضي. فاستعمال تقنية الاسترجاع مع استحضار جملةٍ تُهيّئ المتلقّيّ لأحداث حدثت وانتهت؛ قد حقّق هدفًا في استثارته واسترعاء انتباهه؛ فالشاعر «يُعلم المرويّ له ابتداء السرد وما يؤول إليه حتّى يخلق في نفسه تشوّقًا لمعرفة الأحداث التي ستعود إليه» (العبوديّ، 1426، ص62).

والأبيات في مجملها كشفت عن وضع نفسيّ ممزّق، فالشاعر سارد ومسرود له في آنٍ، عبر استخدام أسلوب التجريد المحض في انفصال الشاعر عن نفسه وإجراء الخطاب لشخص آخر وهو يُريد به نفسه؛ بهدف التخفيف من وطأة الشعور ومرارة الحزن بمشاركة الآخر في المأساة، والتنفيس عمّا يعتمل في داخله؛ لأنّ التجريد «طلب التوسّع في الكلام، فإنّه إذا كان ظاهره خطابًا لغيرك، وباطنه خطابًا لنفسك، فإنّ ذلك من باب التوسّع» (ابن الأثير، د.ت: 160/2).

واستخدام هذا الأسلوب البلاغيّ «مرتكز في المقام الأوّل على البعد النفسيّ العميق، إذ إنّ إقامة حوار داخليّ تبرز حدّة المعاناة والقسوة التي يعاني منها الشاعر» (ربابعة، 1995، ص726).

ويرسم المعتمد صورة حسّيّة دقيقة لتحوّل حياته وظروف بناته، يُوازن فيها بين حاله السابق في العيد وهو مسرور، وحاله الحاضر في العيد وهو مأسور، فهو ما بين ماضٍ جليل وحاضرٍ ذليل في القصيدة كاملة.

ثمّ يُواصل الشاعر استرجاعه الزمنيّ ويتذكّر أعياده السالفة التي كان يرى فيها بناته يتنعّمن بكلّ ألوان النعيم والترف، ويطأن طينًا ممزوجًا بالمسك والكافور وهي أعياد قليلة يُشير فيها إلى تقلّب الدهر السريع عليه؛ ولهذا فهو يستحضره في البيت الأخير وسط تأجّج انفعالاته النفسيّة؛ لينسب إليه تحوّل واقعه الذي كان فيه هو الفاعل، يأمر وينهى، إلى مفعول به، يؤمر ويُنهى.

والحديث عن سطوة الدهر منهج عند جميع الشعراء؛ إذ هو «ثقافة زمنيّة [...] يقف فيها الإنسان من الزمن موقفًا عدائيًّا لأنّه يرى فيه مصدر كلّ الشرّ» (الأطرش، 2006، ص6).

والمُلاحظ في هذه الأبيات غلبة حضور الثنائيّات الضديّة المتقابلة؛ لأنّ هذا الأسلوب المستعمل يُحقق هدف الشاعر وهو الموازنة بين ماضيه وحاضره؛ ولهذا تداخلت الأزمنة في القصيدة بصورة كثيفة؛ فالزمن «ذو طبيعة متحرّكة [...] يتّحد بالوجود ثمّ العدم، بالحضور ثمّ الفناء» (الأطرش، 2006، ص2).

ج. التحسّر على المُلك المفقود، والحاضر المؤلم

إنّ للمحن والنكبات تأثيرًا جليًّا على الشاعر، لكنّ وقع تأثيرها على أصحاب الإمارة ومن عُرفوا بالعزّ والسلطان أعمق وأبلغ؛ ولذا حين سجن يوسف بن تاشفين عزّ الدولة الصمادحيّ (ت504هـ)، واستولى المرابطون على ألمرية وأفقدوه مُلكه ومُلك أبيه، كتب قصائدَ مشحونة بالآلام تنضح أسى وحسرة؛ حيث كان يردّد على لسانه معبّرًا عن عجزه عن استعادة مُلكه المسلوب (فرّوخ، 2006: 78/5):

فقـــدتُ ألمريـــة -أكـــرم بهـــا- فمـــا للوصـــول إليهـــا ســـبيلُ

وممّا يعصر الفؤاد حزنًا وألمًا معاني الحسرة الظاهرة في قوله (فرّوخ، 2006: 79/5):

وقد كنتُ متبوعًا فأصبحتُ تابعًا لدى معشر ليسوا بجنسي ولا شكلي

وقــولي مســموع وفعلــي محكــمٌ وهــا أنــا لا قــولي يجــوز ولا فعلــي

يستحضر الشاعر هنا -في أسىً- ما كان عليه في الماضي؛ حيث كان مقصد الناس طرًّا، يتبعه الداني والقاصي، يُسمع قولَه ويُطاع أمرُه؛ خلافًا لظروفه الراهنة؛ وحالة المفارقة هذه تُشير إلى تأثير الوضع النفسيّ في تشكيل الأبيات ونظمها، وتُعمّق فعل التذكر تحسّرًا على أيّام العزّ والسيادة؛ ولا غرو في ذلك «فالزمن كامن في وعي كلّ إنسان، غير أنّ كمونه في وعي المبدع أشدّ إيلامًا» (الأطرش، 2006، ص7).

ولهذا اتّسم شعر عزّ الدولة بعد سجنه بالبكائيّات ورثاء الملك المفقود، وغلبة استعمال الأساليب الخبريّة الدالّة على التحسّر (فاضل، 1996، ص317-318).

وقد تفنّن الأدباء في نظم هذا الغرض وتضمينه نصوصهم، وهنا يبرز اسم الملك يوسف الثالث (ت820هـ) في تائيّته التي ندب فيها مجده الزائل وسلطته، حيث كان هو الفاعل، يُقيل الدهر ويوقع الموت،

وهو الملك المُهاب، والبطل المفدّى، تخشاه الأسود الضارية، ويخافه الأبطال لسطوة بأسه (يوسف، 1965، ص16-17):

خليليّ لم يخشَ الردى حدُّ مرهفي ... فيا عجبا -والموت في صفحاتِه

وكيف يُقيل الدهرُ للموت عثرةً ... ونحن نُقيل الدهرَ مِن عثراتِه

وإنّي مَن يُردي الكماةَ ثباته ... وقد هدّ ركن الصبر في وثباتِه

وإنّي مَن يخشى الملوكُ نزالَه ... ولم يخشَ صرفَ الدهر مِن غرماتِه

وإنّي لَمَن تهوى الخلائقُ أنْ ترى ... وقد جُعلت طرًّا فداءً لذاتِه

وإنّي مَن ترجو العفاةُ نوالَه ... وتخشى أسودُ الحرب حدّ شباتِه

ومَن ترهب الأبطالُ سطوةَ بأسه ... ويرتاح منه الليثُ في أجماتِه

عبّر الشاعر في هذه القطعة عن نكوص حياته وتقلّب أيّامه، مستهلًّا خطابه بالأسلوب الشعريّ (خليليّ) كما جرت العادة عند العرب قديمًا، «وهذا الاستهلال أفاد دلالة نفسيّة، وكأنّه يُخاطب آخر بعيدًا عنه، وما ذاك المخاطب إلّا روحه التي يشعر أنّها قد فارقته مثلما زال ملكه» (العرفيّ، 2020، ص127).

إن هذه اللحظة الراهنة استدعت استحضار ماضيه واسترجاع ذكرياته بتفصيل يشفّ عن نفس متحسّرة على حالها السابقة حين كان بيدها زمام السلطة والملك.

واللافت في أسلوب التحسّر لدى الشاعر دمجه بالفخر وعلوّ صوت الأنا، ويكاد قارئ هذه الأبيات -من ظاهرها- أن يراها فخرًا أكثر من كونها تحسّرًا؛ ولا غرو في ذلك إذا علمنا «أنّ شعر هذا الملك يغصُّ في أغلبه بالفخر [...] حتّى في أبعد قصائده عن هذا الغرض» (رحيم، 2012، ص256).

ولأنّه صاحب نفس أبيّة لا ترضى بالذلّ والهوان نجده في نهاية القصيدة يُسلّم نفسه للموت بكلّ رضا (يوسف، 1965، ص17):

ولكنّني لم ألفَ للموت مهربًا ... يردّ الذي قد خيف مِن سطواتِه

عسى الله بالصبر الجميل يُعيننا ... ويمنحنا الرضوانَ بعضَ هباتِه

هكذا تفاعل الشعراء الأندلسيّون مع تجربتهم في السجن، وارتبط الوضع النفسيّ وطبيعته بطريقة تصوير الواقع عبر استحضار سيل من ذكريات الماضي طبعت معجمهم الشعريّ بألفاظ الألم والانكسار، وكشفت عن اغترابهم النفسيّ والاجتماعيّ والمكانيّ عبر تقفّي زمن الاسترجاع في هذه البنى، وهو بذلك خيط خفيّ غير مرئيّ يرتبط بالوضع الراهن للذات الشاعرة.

المبحث الثاني: تقنية الاستشراف

لهذه التقنيّة مصطلح سرديّ آخر يُسمّى استباقًا، وتنهض هذه العمليّة السرديّة على التوقّع أو الاستشراف المستقبليّ؛ لارتباطها بإيراد أحداث لاحقة وحكايتها قبل وقوعها (يوسف، 2015، ص119)، ووفق هذا المعنى فإنّ الاستشراف «شكل من أشكال الانتظار أو التطلّع» (جاب الله، 2020، ص301). وممّا يجدر ذكره أنّ هذه الاستباقات أو التوقّعات المرتبطة بالمستقبل مبنيّة على افتراضات قابلة للوقوع أو عدمه؛ ويأتي بها السارد لتهيئة المسرود له بما يُمكن حدوثه؛ فهي «بمثابة تمهيد لأحداث لاحقة، أو التكهّن بمستقبل إحدى الشخصيّات» (جاب الله، 2020، ص301).

وتسليط الضوء في شعر السجون الأندلسيّ يكشف لنا مضامين أخرى ووظائف مختلفة تضطلع بها تقنية الاستشراف؛ وهذا يعود إلى ثراء التجربة الأندلسيّة بهذا اللون الأدبيّ، وتصفّح كتب التاريخ والأدب يُثبت غزارة أخبار نكباتهم وسجنهم حتّى صار تردّدهم بين القصر والسجن أمرًا تألفه النفس، وهذا بدوره انعكس على طرق التعبير وتنوّع الدلالات وفق التداعيات النفسيّة للشّاعر؛ فمنها:

أ. الحكمة والتأمّل

عاش الشاعر بين جدران السجن في عالم منغلق مشحون بالألم والضيق لشعوره بالعزلة الخانقة، والوحدة النفسيّة والجسديّة، فتولّدت وسط هذه الظروف ذات جديدة تحتمي من انكسارها ويأسها بالحكمة والتأمّل وطول النظر. وتُلمح هذه الدلالة الضمنيّة في قطعة شعريّة نظمها مروان الطليق (ت400هـ) وهو في سجنه، وتتّضح فيها النفثات الحكيمة العاقلة الممزوجة بشيء من الفلسفة إزاء حقيقة الموت والحياة؛ يقول (ابن الأبّار، 1985: 221/1):

ألا إنّ دهـــرًا هادمًـــا كـــلّ مـــا بنـــى سـيَبلى كمـا يُبلي، ويَفنى كمـا يُفني

نُلاحظ في البيت استشرافًا مستقبليًّا لِما سيكون عليه حال الدهر من بِلى وفناء، ويبدو أنّ الشاعر هنا يُعزّي نفسه بحقيقة الحياة وفنائها؛ لأنّه كان سجينًا في عهد الحاجب ابن أبي عامر مدّة طويلة تتجاوز العشر سنوات، وقد عُرف هذا الملك بسلطته ونفوذه وحزمه (ابن الأبّار، 1985: 221/1، وعمر، 2018، ص16)؛ الأمر الذي دفعه إلى التسليم بالحقيقة والتنبّؤ بالنهاية.

وما فتئ الشاعر الأندلسيّ في خضمّ معاناته النفسيّة وتمزّق ذاته؛ يذكّر نفسه وغيره بحتميّة الموت تخفيفًا لآلامه وتعزية له؛ فهذا أبو بكر بن باجة (ت533هـ) أوحى له مكوثه في السجن لأشهر عديدة بدنوّ الأجل والتآمر على قتله، فلم يجد أمامه سوى التسليم بقدره المحتوم وتذكير الآخر بحقيقة واقعة لا محالة (ابن خاقان، 1989، ص945):

لعلّـــك يـــا يزيـــدُ علمـــتَ مـــا بـــي فـــــتعلمَ أيَّ خطـــــبٍ قـــــد لقيـــــتُ

يقــولُ الشــامتون: شــقاءُ بخــتٍ لعمــر الشــامتين لقــد شــقيتُ
أعنــدهم الأمــانُ مِــن الليــالي أمَ أيُّهــمُ علــى الــزمن المقيــتُ؟
ومــا يــدرون أيُّهــم سيُســقى علــى كــرهٍ بكــأسٍ قــد سُــقيتُ

وموقف الشاعر إزاء هذا الواقع يشفّ عن ذات مؤمنة بقضاء الله، وفكر متأمّل بطبائع النفس الإنسانيّة وحبّها للتشمت بالعدوّ والفرح بما يُصيبه، ولذا يلتفت إليهم ويخاطبهم على سبيل التذكير «بمكر الزمان ودورته، ويحذّرهم من الاطمئنان إليه [...]، وما القضيّة إلّا قضيّة وقت فقط وسيدركهم الموت وإن كرهوا» (رحيم، 2012، ص246).

وقد يحقّق موقف الشاعر بعدًا آخر فيكون القول بحتميّة موتهم زيادة في إقرار الحقيقة بداخله ليستعيد توازنه ويقوّي ذاته.

ب. توقّع المصيروطلب العفو

إن التوق إلى الحرّيّة وحبّ الحياة هو شعار الأندلسيّين، ولذا فهي جلّ ما كان يصبو إليه السجين المسلوب الإرادة؛ فأخذ ينادي ويستعطف أملًا في النجاة، حتّى صار الاستشفاع غرضًا شعريًّا بذاته، وموضوعًا بارزًا في شعر السجون، تُسيطر عليه معاني الخضوع والتوسّل مطعّمة بالمديح، بهدف كسب رضا صاحب السلطة ونيل عفوه. وطرَق الشعراء هذا الباب لكونه «يُمثّل لديهم أمل الخلاص من السجن، والانطلاق إلى عالم الحرّيّة من جديد، فكانت جلّ أشعارهم تدور حول الاستعطاف [...] والتماس شفاعة الشافعين ممّن يمتّون بصلة إلى الحكّام» (الهادليّ، 2016، ص83).

وتجلّى هذا الغرض في قصيدة ابن عمّار التي كتبها إلى المعتمد يرجو نواله ويستدرّ عطفه؛ آملًا في انجلاء الغمّة، وانبثاق النور من العتمة؛ وذلك في قوله (ابن الأبّار، 1985: 154/2):

وقــالوا ســيجزيه فــلان بذنبــه فقلــت وقــد يعفــو فــلان ويصــفحُ

يضعنا البيت أمام حالة نفسيّة مضطربة تعيش صراعًا مع حاضر مؤلم ومستقبل مجهول، فهو يعيش في قلق دائم دفعه إلى استشراف مستقبله والتطلع إلى مصيره المرتبط بهذا الأمير، ويصوّر الشطر الأوّل هذا القلق والخوف من تحقّق ما يتمنّاه الأعداء والعواذل وهو القتل، والشاعر في تنبّئه لهذا الحدث المستقبليّ يُريد استمالة قلب المعتمد وترقيق قلبه عليه بنفي هذه الحقيقة التي تؤرّقه من خلال إثبات كرمه وعفوه في الشطر الثاني. وخوف الشاعر من مستقبله «يختلف عن الخوف من الماضي؛ فالماضي واضح، أمّا المستقبل فمجهول، وكلّ مجهول مرهوب، فقد يُخالف ما نتمنّاه، وقد يحمل الموت بين طيّاته» (الطويّان، 2023، ص164).

وفي رسالة المخلوع أبي عبدالله الصغير (ت940هـ) إلى سلطان فاس الشيخ الوطاسيّ؛ تحتشد دلالات المدح والاستعطاف والذلّ جميعها في قصيدة واحدة ضمّنها رسالته، واستهلّها بقوله (المقّريّ، 1900: 4/529-530):

مـولى الملـوك ملـوك العـرب والعجـم ... رعيًـا لِمـا مثلـه يُرعـى مِـن الـذممِ
بـكَ اسـتجرنا ونعـم الجـار أنـت لِمَـن ... جـارَ الزمـانُ عليـه جـورَ منـتقمِ
وعـدِّ عمّـا مضـى إذ لا ارتجـاع لـه ... وعـدّ أحرارنـا فـي جملـة الخـدمِ
كـن كالسـموأل إذ سـار الهمـامُ لـه ... فـي جحفـلٍ كسـواد الليـل مـرتكمِ
فلـم يـبحْ أدرع الكنـديّ وهـو يـرى ... أنَّ ابنـه البـرّ قـد أشـفى على الـرجمِ
أو كـالمعلّى مـع الضـلّيل الاروع إذ ... أجـارَه مِـن أعاريـب ومِـن عجـمِ

وقد كشف البيت الثاني عن التمزّق الذي يعانيه الشاعر في هذه الأجواء التي يُخيّم عليها الخيبة وفقدان الأمل من استغاثة سلطان فاس به، دفعه هذا اليأس إلى تطلّع موقف الوطاسيّ في إجابة مبتغاه، ويُستدلّ على ذلك بإخراج الطلب بصورة الإثبات وكأنّ الشاعر واثق بتحقّق ما ترومه نفسه. واستعمال هذه التقنية في استشراف مصيره حيلة دفاعيّة يحتمي بها الشاعر من الانكسار والتشظّي ليتّزن نفسيًّا، فهو لا يُريد الاستسلام والرضوح للحقيقة، لذا يستغرق في الاستشفاع ويوظّف تلك الأحداث التاريخية، كوسيلة إقناعيّة تدعم موقفه، بل ويُبالغ في التوسّل ويرتضي لنفسه وغيره أن يكونوا خدمًا عندهم في سبيل استمالة السلطان له.

ج. بكاء القدر المحتوم والإحساس بدنوّ الأجل

إنّ قوّة تأثير السجن على نفسيّة الشعراء ممّن هم ذوو شأن ومكانة اجتماعيّة وسياسيّة؛ دفعتهم إلى نظم قصائدَ مشحونة بالألم. وفي رفض الواقع المُهين الذي عاش فيه الشاعر غربتان: غربة نفسيّة بلورتها الظروف المتقلّبة واختلاف ماضيها عن حاضرها، وغربة مكانيّة تولّدت جرّاء انبتات العلاقة مع أهله وأبنائه وأصحابه، وفقده لوطنه ومُلكه؛ وهذا الشعور من شأنه أن يدفع الشاعر إلى تأميل نفسه بالتّحرّر واستعادة الحياة من جديد؛ لكنّ للمعتمد بن عبّاد في قصيدته موقفًا آخر؛ حيث قال في نشيج حزين (ابن عبّاد، 1951، ص98):

غريـــبٌ بـــأرض المغـــربين أســـيرُ ... ســـيبكي عليـــه منبـــرٌ وســـريرُ
وتندبـــه البـــيضُ الصـــوارمُ بالقنـــا ... وينهـــلُّ دمـــعٌ بيـــنهنّ غزيـــرُ
ســـيبكيه فـي زاهيـــه والزهـــر والنـــدى ... وطلّابـــه، والعـــرفُ ثـــمّ نكيـــرُ

تضعنا الأبيات منذ طلعها أمام ذات ترثي نفسها ومُلكها ومجدها، وتُسيطر عليها حالة من الخوف بدنوّ أجلها ويأسها من الحياة؛ وهي دلالات كشفتها الألفاظ المستعملة (غريب، سيبكي، تندبه، ينهلّ، دمع)،

إلى جانب استهلال القصيدة بهذا البيت الشجيّ المشحون بالأسى والإحساس بحتميّة الموت، وقد نجح ذلك في استرعاء الانتباه؛ لأنّه عنصر «له تأثيره النفسيّ في المرويّ له؛ لإيقاظ ملكة التوقّع عند المتلقّي، فيصير الأخير مترصّدًا لما سيحدث من أحداث توفّر تطمينًا لحفيظته التي أثارتها جملة الاستهلال» (العبوديّ، 1426، ص66-67).

كما أسهم أسلوب الالتفات المتجلّيّ في هذا البيت في إثارة الذهن وإيقاظ السامع للإصغاء؛ تعظيمًا لشأن هذا المتكلّم (ابن الأثير، د.ت: 2/168-169).

ونفسيّة الشاعر الممزّقة استثارت العواطف الإنسانيّة بإشراكه العناصر الجامدة التي تضافرت في النصّ «كوسيلة نفسيّة للهروب من واقعه الأليم» (عواطف، 2021، ص343)؛ فمنبره وسريره وقصره تبكيه، وسيوفه ورماحه -التي هي رمز لسلطته وقتئذ- تندبه؛ وهذا يُشير إلى استباق المعتمد لأحداث حياته المستقبليّة التي لم تحدث بعد، لكنّها تبدو وكأنّها قد حدثت بالفعل وأنه غادر الحياة؛ ومبعث هذا الشعور يعود إلى سيطرة فكرة قدره المحتوم بالموت وإلحاحها عليه؛ ولذا وظّف لفظ البكاء وإيحاءاته وكرّره في القصيدة «ليقرّره في النفوس، كما تقرّر في نفسه أوّلًا» (خليل، د.ت، ص381).

وممّا يُدلّل على أنّ شعوره بدنوّ أجله وحتميّة الموت كانت هاجسًا ملحًّا عليه؛ ما كتبه في قصيدة أخرى يستطلع فيها مستقبل بناته المُنذر بالفقر والحياة البائسة؛ ممّا يعني أن «المعتمد لم يقف عند تصوير مأساته فقط، بل يتعدّى إلى إظهار مأساة بناته» (مخلوف، 2014، ص41)؛ وذلك في قوله (ابن عبّاد، 1951، ص90):

أأرغـــبُ أن أعـــيشَ أرى بنـــاتي عـــواري، قـــد أضـــرَّ بهـــا الحفـــاءُ

ثمّ لا يلبث أن يستجيب الشاعر لتداعيات نفسيّته؛ فهدأ ويُخاطب نفسه مستبقًا أحداثًا مستقبليّة، بتفكّر وتسليم بالحقيقة الإيمانيّة التي ستطال كلّ ما في الأرض (ابن عبّاد، 1951، ص90)

سيُســلّي الــنفس عمّــن فــات علمي بـــأنَّ الكـــلّ يدركـــه الفنـــاءُ

والاستشراف في هذا البيت له بعد جماليّ وآخر دلاليّ تحقّقا بتوظيف المونولوج الداخليّ الذي يطبع -غالبًا- قصائد المُناجاة؛ وقد أفاد في تقديم المحتوى النفسيّ للشخصيّة، والتعبير عن أفكارها الكامنة في اللاشعور (جاب الله، 2020، ص296).

د. اليأس من الحياة واليقين من الموت

يرتبط هذا الشعور بصورة جليّة في المراثي الذاتيّة التي تحمل نفحات فلسفيّة متأمّلة وقف عندها الشاعر في سجنه، وهو موقف نابع من يأسه لكونه ميّتًا لا محالة، وكانوا قديمًا يُسمّون السجين مخيسًا (البزّة، 1985، ص21)؛ ومن هنا أدرك الشاعر بحذقه استحالة عودة الماضي والخروج من هذا الأسر،

فاقتنع مكرهًا بحاضره الذي يرى فيه شبح الموت المتخيّل، ولذا فاليأس أجدى وسيلة دفاعيّة تُنقذه من توهّم الأمل في خروجه للحياة من جديد، وهو موت اعتاده السجين لأنّه «إن كان حيًّا في الظاهر، فإنّه ميّت في الباطن» (الشقرفيّ، 2016، ص20).

ويبرز هذا الموقف في بعض أشعار المعتمد، ومنها قصيدته التي رثى فيها نفسه، وكأنّه كان مطّلعًا على مستقبله؛ فرسم مآله الذي سينتهي إليه، دون توسّل، واستعطاف؛ ليأسه من الحياة، ويقينه من دنوّ أجله (ابن عبّاد، 1951، ص96):

قبر الغريب سقاك الرائح الغادي ... حقًّا ظفرتَ بأشلاء ابن عبّادِ
نعم هو الحقّ وافاني به قدرٌ ... مِن السماء فوافاني لميعادِ
ولا تزال صلاة الله دائمة ... على دفينك لا تُحصى بتعدادِ

يُستنتج من قول ابن عبّاد وغيره من الشعراء الذين استشرفوا مستقبلهم ورثوا ذواتهم يقينًا بحتميّة موتهم؛ أنّ قصائدهم «جسر الفصل بين حياة تُودَّع وموت يُستقبَل» (العرفيّ، 2020، ص119). وقد كشفت الأبيات الأجواء الشعوريّة التي تلفّ المعتمد وهو في قبضة السجن، حيث الوحدة والغربة ومكابدة أصناف العذاب، لذا يُحاول إمضاء وقته بالتنفيس عن رغبته الملحّة بنهاية أجله وانتظار مصيره، وما تمنّي الشاعر الموت إلّا يأسًا من حياته، وسخطًا على ما أصابه، وهروبًا من واقعه، فما من وسيلة تُخلّصه من عذابه وتحقّق راحته إلّا الموت.

هذا وقد شفّت المرثيّات الذاتيّة عن ولع الشاعر الأندلسيّ بالشعر، فهو في ظروفه الحالكة ولحظاته الأخيرة يتّخذ الشعر أداة للتنفيس والبوح، ونافذة يطلّ من خلالها على عالمه الفسيح.

والمُلاحظ أنّ هذا النوع من المراثي يرتبط بالشّعر الزهديّ الذي يتمركز حول التفكّر بحقيقة الممات دون الالتفات إلى الحياة والتحسّر على نعيمها الفاني؛ وهذه «ردّة فعل طبيعيّة لأيّ أزمة يمرّ بها الإنسان، تجعله يهرب من الحياة ويعتزلها؛ مؤثرًا العبادة والتأمّل عليها» (الطويّان، 2023، ص137).

وبعد استعراض هذه النماذج يُلاحظ أنّ توظيف تقنية الاستشراف يعتمد بصورة واضحة على إبراز صوت المتكلّم؛ لكونه يتطلّع إلى أحداث مستقبليّة ترتبط بحياته الخاصّة. وأنّ استحضار الشاعر لهذا المستقبل مبعثه القلق من المآل المجهول؛ ولذا فإنّ استشرافه له يُحقّق نوعًا من التوازن النفسيّ والارتياح النسبيّ؛ وهذه التقنية بذلك حيلة نفسيّة يحتمي بها الشاعر لتوطين ذاته على تقبّل نتيجة نهايته مهما كانت مساوئها.

وختامًا يتّضح بعد الوقوف عند هذه الظاهرة في شعر الأندلس أنّ الوضع النفسيّ للشاعر ينعكس على كتاباته الشعريّة، فتكون أكثر إبداعًا، وأقوى إحساسًا لارتباطها بالواقع لا سيّما إن كان مأساويًّا، لأنّها

تُكتب والقلب ينزف دمًا والكبد تتفطّر حرقة؛ فَيَصِل صدقها وعمقها؛ وذلك عبر توظيف تقنيتي الاسترجاع والاستشراف، وهما من أنجع الوسائل في قراءة نفسيّة الشعراء واستخلاص الدلالات المتوارية عن سطح النص، وأهمّها انكسار الشاعر الأندلسيّ وهروبه من حاضره إلى ماضٍ يتمنّى استعادته، أو إلى مستقبل يروم تحقيقه، وفي كلّ أراد الشاعر استعادة توازنه وشعوره بالرضا.

النتائج:

من أبرز النتائج التي أفضت إليها الدراسة ما يأتي:

- ظروف الحياة القاسية وتجربة السجن أو الأسر لها دور كبير في تشكيل الإبداع الشعريّ، واللجوء إلى استخدام ألفاظ مُعبّرة تعكس نفسيّة الشاعر، وتُمكّن القارئ من فهم تلك الاختلاجات النفسيّة وتذبذبها عبر المستوى اللغويّ بما ينطوي عليه من مؤشّرات زمنيّة تُفصح عن انفعالات الذات، وتُثبت صدق تجربتها، وقوّة عاطفتها، ودقّة تصوير واقعها المؤلم؛ ولذا نلحظ تكرارًا فرضته تجربة السجن في بعض الأساليب المستعملة عند الشعراء؛ كشيوع أساليب التحسّر والشكوى وغيرها، أو في بعض الألفاظ الموحية بالانكسار والمرارة والقلق المرتبطة بوضع الشاعر النفسيّ.

- هذه النماذج الأندلسيّة المختارة من شعر السجون حظيت بتقنيات المفارقة الزمنيّة؛ لنقل التجربة الشعوريّة بتناقضاتها وتداعياتها؛ فاتّسمت النصوص الشعريّة بتداخل الأزمنة عبر الموازنة بين الماضي الزاهر والحاضر البائس من جهة، والمستقبل المجهول الغامض من جهة أخرى؛ وهنا تُرصد مزيّة المفارقة السرديّة في كسر رتابة التتابع السردي الخطّيّ، وجعله أكثر انفتاحًا على الدلالات، وتعدّد القراءات.

- تقنيات المفارقة الزمنيّة -بنوعيها- أسهمت في تبلور رؤى الشعراء الأندلسيّين إزاء تبدّل الأحوال وتقلّب الأيّام التي وقفوا أمامها في موقفين: الشكوى والتحسّر، وتوقّع المصير وطلب العفو، أو التأمل والحكمة والتسليم بالواقع والزهد فيما تبقّى من الحياة؛ وهذا الاختلاف في الموقف يُشير إلى حقيقة تفاوت الشعراء في تكوينهم العاطفيّ والفكريّ.

- تقنية الاسترجاع بوصفها عودة لأحداث وقعت في الزمن الماضي -البعيد أو القريب- أضفت على النص مزيدًا من التماسك والحبك عبر ملء الفجوات الدلاليّة التي يُشير إليها الشاعر في أبياته.

- تقنية الاستشراف نجحت في استرعاء انتباه المتلقّيّ باستحضار أحداث لاحقة لم يبلغها السرد بعد؛ لتُشبع فضوله في الكشف عمّا هو في ذلك المستقبل المجهول، أو لتُطلعه إلى نفسيّة الشاعر ورؤيته لمستقبله التي يشوبها القلق والتخوّف حينًا، والتسليم والرضا أحيانًا أخرى.

- الوقوف على تقنيتي الترتيب الزمنيّ وتتبّع مضامينهما حقّق رصد الفوارق بينهما؛ فالاسترجاع يُجلّي للقارئ الواقع الحقيقيّ الذي كان عليه الشاعر آنذاك، والاستشراف يُشير إلى التطلّعات والرغبات التي ينتظر الشاعر تحقيقها بتأمّل كالعفو واستعادة الحريّة، وبيأس واستسلام كانتظار الموت.

المراجع:

ابن الأبّار. (1985). *الحلّة السيراء* (حسين مؤنس، تحقيق؛ ط.2). دار المعارف.

ابن الأثير. (د.ت). *المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر*، دار نهضة مصر.

الأطرش، رابح. (2006). مفهوم الزمن في الفكر والأدب. *مجلة المعيار*، *7*(13)، ص170-205.

باقر، خالد. (2012م). رثاء الذات في الشعر الأندلسيّ قراءة في دلالة النصّ الشعريّ، *مجلّة اللغة العربيّة وآدابها*، *1*(13)، ص81-133.

البزّة، أحمد مُختار. (1985). *الأسر والسجن في شعر العرب* (ط.1). مؤسّسة علوم القرآن.

الهادليّ، شيماء. (2016). الذات والآخر في شعر سجون الأندلس. *مجلّة أبحاث البصرة*، *41*(2)، ص81-104.

جاب الله، أسامة. (2020). سيميائيّة السرد الزمنيّ في شعر ابن زيدون. *مجلّة جامعة الشارقة*، *17*(1)، ص284-325.

جنثالث، آنخل. (1955). *تاريخ الفكر الأندلسيّ* (حسين مؤنس، ترجمة). مكتبة الثقافة الدينيّة.

الحلفيّ، عبدالعزيز. (1970). *أدباء السجون* (ط.1). دار الكاتب العربيّ.

ابن خاقان. (1989). *قلائد العقيان ومحاسن الأعيان* (حسين خريوش، تحقيق؛ ط.1). مكتبة المنار.

ابن خلّكان. (1971). *وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان* (إحسان عبّاس، تحقيق؛ ط.1). دار صادر.

خليل، محمّد. (د.ت). *محنة السجن في شعر المعتمد بن عبّاد: دراسة فنّيّة*، جامعة الأزهر.

ربابعة، موسى. (1995). ظاهرة التجريد في نماذج من الشعر الجاهليّ. *دراسات العلوم الإنسانيّة*، (2)، ص735-760

رحيم، مقداد. (2012). *رثاء النفس في الشعر الأندلسيّ*، دار جُهينة.

ابن زيدون. (د.ت). *ديوانه*، (علي عبدالعظيم، تحقيق). نهضة مصر.

ابن زيدون. (1994). *ديوانه* (ط.2). دار الكتاب العربيّ.

الشريف، أحمد. (1979). *ابن عمّار عصره وحياته وشعره* [رسالة ماجستير غير منشورة]. كلّيّة اللغة العربيّة، جامعة الأزهر، القاهرة.

الشقرفيّ، مروة. (2016). تمنّي الموت في الشعر الأندلسيّ، *مجلّة مركز الخدمة للاستشارات البحثية*، *18*(53)، ص1-64.

الصمد، واضح. (1995). *السجون وأثرها في الآداب العربيّة من العصر الجاهليّ حتّى نهاية العصر الأُمويّ* (ط.1). المؤسّسة الجامعيّة.

ضيف، شوقيّ. (1955). *الرثاء* (ط.1). دار المعارف.

الطويّان، منيرة. (2023). تجلّيات الثبات، وانكسار الذات في شعر لسان الدين بن الخطيب، *المجلّة العلميّة لكلّيّة الآداب*، (85)، ص131-210.

ابن عبّاد، المعتمد. (1951). *ديوانه* (أحمد بدويّ، وحامد عبدالمجيد، تحقيق). المطبعة الأميريّة.

عبدالدائم، نوال. (2020). *أدب السجون عند "أيمن العتوم" من خلال روايتيه: "يسمعون حسيسها" و"يا صاحبيّ السجن"* [رسالة ماجستير غير منشورة]. كلّيّة الآداب واللغات، جامعة محمّد بوضياف، المسيلة.

العبوديّ، ضياء. (1426). *البنية السرديّة في شعر الصعاليك* [رسالة دكتوراه غير منشورة]. كلّيّة التربية، جامعة البصرة، العراق.

العرفيّ، وليد. (2020). شعراء في مواجهة الموت: حكّام الأندلس أنموذجًا، *مجلّة التراث العربيّ*، (156)، ص119-146.

عمر، سيّ. (2018). مساهمة البربر في نجاح المنصور بن أبي عامر في الأندلس، *مجلّة القرطاس*، (10)، ص11-19.

عواطف، نصر، وقدويّة، يعقوبيّ. (2021). أثر السجن والأسر في شعر رثاء الذات في العصر الأندلسيّ: نماذج مُختارة. *مجلّة موروث، 9*(2)، ص336-347.

فاضل، فتحيّ. (1996). *الفتن والنكبات الخاصّة وأثرها في الشعر الأندلسيّ* (ط.1). دار الأندلس.

فرّوخ، عمر. (2006). *تاريخ الأدب العربيّ* (ط.4). دار العلم.

القاضي محمد، الخبو، محمّد، والسماويّ، أحمد، والعماميّ، محمّد، وعبيد، علي، وبنخود، نور الدين، والنصريّ، فتحيّ، ومبهوب، محمّد. (2010). *معجم السرديّات* (ط.1). دار محمد علي للنشر، ودار الفارابي، ومؤسّسة الانتشار العربيّ، ودار تالة، ودار العين، ودار الملتقى.

ابن قتيبة. (1418). *عيون الأخبار*، دار الكتب العلميّة.

كريم، إيمان، وعثمان، ريان. (2023). *أدب السجون في الأندلس -ابن زيدون أنموذجًا-* [بحث تخرج غير منشور]. كلّيّة التربية الأساسيّة، جامعة صلاح الدين، العراق.

مخلوف، بسمة. (2014). *شعر السجن عند المعتمد بن عبّاد: دراسة فنّيّة* [رسالة ماجستير غير منشورة]. جامعة محمّد خيضر، كلّيّة الآداب واللغات، الجزائر.

المقّريّ، أحمد. (1900). *نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب* (إحسان عبّاس، تحقيق). دار صادر.

ابن منظور. (1414). *لسان العرب* (ط.3)، دار صادر بيروت.

يوسف، أبو الحجّاج. (1965). *ديوانه* (عبدالله كنون تحقيق؛ ط.2). مكتبة الإنجلو المصريّة.

يوسف، آمنة. (2015). *تقنيات السرد في النظريّة والتطبيق* (ط.2). المؤسّسة العربيّة.

References

Ibn al'bbār. (1985). *alḥllh al-siyarā'* (Ḥusayn Mu'nis, taḥqīq; 2nd ed.). Dār al-Ma'ārif.

Ibn al-Athīr. (N. D). *al-mathal al-sā'ir fī adab al-Kātib wa-al-shā'ir*, Dār Nahḍat Miṣr.

al-Aṭrash, Rābiḥ. (2006). Mafhūm al-zaman fī al-Fikr wa-al-adab. *Majallat al-Mi'yār, 7*(13), ş170-205.

Bāqir, Khālid. (2012m). rithā' al-dhāt fī al-shi'r al'ndlsī qirā'ah fī Dalālat alnṣṣ alsh'rī, *Majallat al-lughah al-'Arabīyah wa-ādābihā, 1* (13), ş81-133.

Albzzh, Aḥmad mukhtār. (1985). *al-usar wa-al-sijn fī shi'r al-'Arab* (1st ed.). Mu'assasat 'ulūm al-Qur'ān.

Albhādlī, Shaymā'. (2016). al-dhāt wa-al-ākhar fī shi'r sujūn al-Andalus. *Majallat Abḥāth al-Baṣrah, 41* (2), ş81-104.

Jāb Allāh, Usāmah. (2020). symyā'yyh al-sard alzmnī fī shi'r Ibn Zaydūn. *Majallat Jāmi'at al-Shāriqah, 17* (1), ş284-325.

Jnthālth, ānkhl. (1955). *Tārīkh al-Fikr al'ndlsī* (Ḥusayn Mu'nis, tarjamat). Maktabat al-Thaqāfah aldynyyh.

Alḥlfī, 'Abd-al-'Azīz. (1970). *Udabā' al-sujūn* (1st ed.). Dār al-Kātib al'rbī.

Ibn Khāqān. (1989). *Qalā'id al-ʿiqyān wa-maḥāsin al-aʿyān* (Ḥusayn Kharyūsh, taḥqīq; 1st ed.). Maktabat al-Manār.

Ibn khllkān. (1971). wafayāt al-aʿyān w'nbā' abnā' al-Zamān (Iḥsān ʿAbbās, taḥqīq ; Ṭ. 1). Dār Ṣādir.

Khalīl, Muḥammad. (N. D). *Miḥnat al-sijn fī shiʿr al-muʿtamad ibn ʿbbād : dirāsah fnnyyh*, Jāmiʿat al-Azhar.

Rabābiʿah, Mūsá. (1995). Ẓāhirat al-Tajrīd fī namādhij min al-shiʿr aljāhlī. *Dirāsāt al-ʿUlūm al-Insānīyah*, (2), ṣ735-760

Raḥīm, Miqdād. (2012). *rithā' al-nafs fī al-shiʿr al'ndlsī*, Dār juhynh.

Ibn Zaydūn. (N. D). *dīwānih*, (ʿAlī ʿbdāl'ẓym, taḥqīq). Nahḍat Miṣr.

Ibn Zaydūn. (1994). *dīwānih* (2nd ed). Dār al-Kitāb alʿrbī.

al-Sharīf, Aḥmad. (1979). *Ibn ʿmmār ʿaṣrihi wa-ḥayātuhu wa-shiʿruh* [Risālat mājistīr ghayr manshūrah]. kllyyh al-lughah al-ʿArabīyah, Jāmiʿat al-Azhar, al-Qāhirah.

Alshqrfī, Marwah. (2016). tmnny al-mawt fī al-shiʿr al'ndlsī, *Majallat Markaz al-khidmah lil-Istishārāt al-baḥthīyah, 18*(53), ṣ1-64.

al-Ṣamad, Wāḍiḥ. (1995). *al-sujūn wa-atharuhā fī al-Ādāb al-ʿArabīyah min al-ʿaṣr aljāhlī ḥttá nihāyat al-ʿaṣr al'umwī* (1st ed.). alm'sssh aljāmʿyyh.

Ḍayf, shwqī. (1955). *al-rithā'* (1st ed.). Dār al-Maʿārif.

Alṭwyyān, Munīrah. (2023). tjllyāt al-thabāt, wānksār al-dhāt fī shiʿr Lisān al-Dīn ibn al-Khaṭīb, *Majallat alʿlmyyh lkllyyh al-Ādāb,* (85), ṣ131-210.

Ibn ʿbbād, al-muʿtamad. (1951). *dīwānih* (Aḥmad bdwī, wḥāmd ʿAbd-al-Majīd, taḥqīq). al-Maṭbaʿah al'myryyh.

ʿBdāldā'm, Nawāl. (2020). *adab al-sujūn ʿinda "Ayman al-ʿAtūm" min khilāl rwāytyh : "ysmʿwn ḥsyshā" wa "yā ṣāḥbī al-sijn"*[Risālat mājistīr ghayr manshūrah]. kllyyh al-Ādāb wa-al-lughāt, Jāmiʿat Muḥammad Būḍyāf, al-Masīlah.

Alʿbwdī, Ḍiyā'. (1426). *al-binyah alsrdyyh fī shiʿr al-ṣaʿālīk* [Risālat duktūrāh ghayr manshūrah]. kllyyh al-Tarbiyah, Jāmiʿat al-Baṣrah, al-ʿIrāq.

Alʿrfī, Walīd. (2020). shuʿarā' fī muwājahat al-mawt : ḥkkām al-Andalus unamūdhajan, *Majallat al-Turāth alʿrbī*, (156), 119-146.

ʿUmar, sī. (2018). musāhamah al-Barbar fī Najāḥ al-Manṣūr ibn Abī ʿĀmir fī al-Andalus, *Majallat al-qirṭās,* (10), 11-19.

ʿAwāṭif, Naṣr, wqdwyyh, yʿqwbī. (2021). Athar al-sijn wa-al-usar fī shiʿr rithā' al-dhāt fī al-ʿaṣr al'ndlsī : namādhij mukhtārh. mjllh mawrūth, 9 (2), ṣ336-347.

Fāḍil, fṭḥī. (1996). *al-fitan wa-al-nakabāt alkhāṣṣh wa-atharuhā fī al-shiʿr al'ndlsī* (1st ed.). Dār al-Andalus.

Frrwkh, ʿUmar. (2006). *Tārīkh al-adab alʿrbī* (4th ed.). Dār al-ʿIlm.

al-Qāḍī Muḥammad, al-Khabw, Muḥammad, wālsmāwī, Aḥmad, wālʿmāmī, Muḥammad, wʿbyd, ʿAlī, wbnkhwd, Nūr al-Dīn, wālnṣrī, fṭḥī, wmyhwb, Muḥammad. (2010). *Muʿjam alsrdyyāt* (1st ed.). Dār Muḥammad ʿAlī lil-Nashr, wa-Dār al-Fārābī, wm'sssh al-Intishār alʿrbī, wa-Dār Tālah, wa-Dār al-ʿAyn, wa-Dār al-Multaqá.

Ibn Qutaybah. (1418). *ʿUyūn al-akhbār*, Dār al-Kutub alʿlmyyh.

Karīm, Īmān, wa-ʿUthmān, Rayyān. (2023). *adab al-sujūn fī al-Andalus-ābn Zaydūn anmwdhjan*- [baḥth takhruju ghayr manshūr]. kllyyh al-Tarbiyah al'sāsyyh, Jāmiʿat Ṣalāḥ al-Dīn, al-ʿIrāq.

Makhlūf, Basmah. (2014). *shiʿr al-sijn ʿinda al-muʿtamad ibn ʿbbād : dirāsah fnnyyh* [Risālat mājistīr ghayr manshūrah]. Jāmiʿat Muḥammad Khayḍar, kllyyh al-Ādāb wa-al-lughāt, al-Jazā'ir.

Almqqrī, Aḥmad. (and*). Nafḥ al-Ṭayyib min Ghuṣn al-Andalus al-raṭīb* (Iḥsān ʿAbbās, taḥqīq). Dār Ṣādir.

Ibn manẓūr. (1414). *Lisān al-ʿArab* (3rd ed.), Dār Ṣādir Bayrūt.

Yūsuf, Abū alḥjjāj. (1965). *dīwānih* (ʿAbd Allāh Kannūn taḥqīq ; 2nd ed.). Maktabat al'njlw almṣryyh.

Yūsuf, Āminah. (2015). *Tiqniyāt al-sard fī alnẓryyh wa-al-taṭbīq* (2nd ed.). alm'sssh al-ʿArabīyah.